الكرامـــة...

قصة: نبيل عودة *
nabiloudeh@gmail.com

قوامها سحره .
صارت شغله الشاغل .
منذ رآها لأول مرة انقلب كل شيء في نهج حياته .
لم تغب عن ذهنه لا في يومه أو ليله ، الهبت أحاسيسه ، أججت رغباته ، يتخيلها دائما الى جانبه ، لا يستطع ان يفكر بها مع غيره .
لاحقها بالاتصالات ، تجاهلته .
لم ترد على اتصالاته المتواصلة بعناد منتزعا الحياء من قاموسه .. لم تعطه فرصة للحديث وشرح ما يعتلج في فؤاده .
ظهورها في الشارع يلوي أعناق أعتى الرجال باتجاهها ..

كان في حدود العقد الرابع ، رياضي في مبنى جسمه ، ويبدو أصغر من عمره بعقد كامل .
ورجولته مغرية بدليل عشرات العلاقات النسائية الناجحة .. بل الكثيرات بدأن التحرش به ، اتصالات كثيرة يرن بها نقاله لا يرد عليها . تغير ولم يعد شيء يملأ عينه غيرها .
رجولتة جميلة ، ووضعه الاجتماعي والاقتصادي ثابت ولا خوف من اهتزازه . يملك سيارة مرسيدس فخمة يجددها كل سنتين ، وملاك لاراض ومحلات تجارية وعدد من المنازل ، أمواله موزعه بين البورصة والاستثمارات في الأراضي . بكلمات بسيطة : واسع الثراء .
لا هم لمصروف الحياة ، وبلا خوف من ضائقة آخر الشهر . ويبدو ان وقاحته من شعوره بقوته المالية.
فصاحب "الرأي" ، كما يقول المثل ، :هو صاحب المئة " .
من كل ما يحيطه من جميلات لم يعد يرى غيرها .
قطع كل علاقاته .. وصار يحلم بالوصول الى ساحرته .
ولكنها صدته . لم ترد على اتصالاته حتى بكلمات اعتذار .
كان يثور غاضبا ويقرر خطوات يرد لها اهانتها.
عندما يلمحها .. تختفي ثورته ، ويغرق في حلمه الرطب بأن تلين امام ملاحقته.
يتأمل قوامها الممشوق ، مشيتها الشبيهة بالمشية العسكرية ، تقاسيم وجهها المميزة والتي تشع براحة والق نادر ، لا يشبع الانسان من النظر اليها وتأملها ، والمشع براحة نفسية وثقة شخصية .
رغبته بالتواصل معها تأصلت في نفسه ، لم يكن في حسابه ان يتزوج ، وبات يقنع نفسه ان السبب عدم قناعته بفتاة حتى اليوم ، ولكن من أجل عينيها ارسل الخاطبات ، المبرطلات من الأمهات ، واللواتي كن يترددن على والدته طمعا بالفوز بتزويجه والحصول على أجرة قد تكون من ثلاثة ارقام .
والخاطبات يجعلن القرد غزالا ، فكيف الحال والعريس سيد الرجال بشكله وجيبه ؟
كن يثرثرن : ابنة فلان لقطة .. وتلك الفتاة من الحارة القريبة بتجنن ، ومن الحارة الفوقا والتحتا والبلد المجاور آيات في الحسن والأخلاق و .. و .. و .. فقط اقنعي ابنك .. والأم تفور حماسة ،

والإبن في عالم آخر .. ما قيمة المال بدون بنين ..؟ تقبل الخاطبات عارضات أجمل الصبايا ، وكلهن بعمر الورود . ولا يتركن الأم الا وهي تدمع من عقوق ابنها الرافض للزواج .
الا هي ... ساحرته التي أعياه ترويضها .
منذ رأها لم تعد به رغبة بإمرأة غيرها ، حتى لمغامرة عابرة . علاقاته أوقفها شاعرا ان لا شيء يروي احتراقه الداخلي الا رحيقها ... كانت تبدو قريبة وميسرة .. ولكنها لا تلتفت لأحد ولا يعنيها من يتصل بها .. اذا لم تعرف صاحب الرقم المتصل تلغي الاتصال ولا تكلف نفسها عناء الرد ، كأنها تعلم ما يختبئ وراء الإتصال . ولا يبدو ان المطاردة تقلقها .. ثقتها بنفسها تزيد جنونه .. مشيتها مثيره ، وجهها يسحره ، لا يعرف كيف يصبر على صدها . على احتضان وجنتيها بكفيه ...
قال أحدهم ان الرجل يرغب دائما بالمرأة التي لم يحصل عليها.. ولكن احساسه يقول ان هذه فذلكة كلامية.. هناك من هي أجمل منها ، وأكثر اغراء جنسيا ، ولكنها هي ظلت المميزة والمثيرة أكثر من كل نساء الأرض. وبتفكير معاد يخاف ان يكون ذلك القول صحيحا أيضا . هل وصوله اليها سيبقيه ولهانا ومسحورا بها ؟
هل من سبب عقلاني يفسر ما هو به من صبابة وعشق ؟
هو نفسه لا يعرف ما أصابه .. منذ التقاها ، وهو ليس هو نفسه .
هل من تبرير لهذا الشعور وهذه القناعة التي يمكن ان يقال انها أخرجته من استقراره الحياتي ؟
أخرجته من اندفاعه وراء التنانير ؟
التنانير القصيرة كانت تصعقه .
ولكنها ترتدي للركبة ، أو أقصر قليلا .
تميزها اناقة تضفي عليها مسحة جمالية تخترق الأحاسيس . لأول مرة يشعر انه يملك أحاسيس تتمحور حول فتاة بعينها.
هل هو الحب؟
ورث ملايين كثيرة عدا الأطيان ، ربما لهذا السبب كانت علاقاته النسوية ناجحة .. ليس بسبب شطارته بقدر ما هي شطارة جيبته ، وعدم تردده أمام أي مصروف كبير ..
كم يشعر انه مستعد ان يبدل امواله كلها بعلاقة معها..
يحاول ان يحدد ما شده اليها ، ويجد نفسه عاجزا عن وضع رؤية واضحة .. يقول لنفسه : " هي كما هي منتهى احلامي " .
كان انيقا في ملبسه ، ولكنها لا تريد ان تمنحه حتى التفاتة . كان مستعدا ان يكسر قناعاته ضد الزواج اذا قبلت به زوجا. سيلبي كل ما تطلبه . سيجعلها ملكة غير متوجة !!
ارسل احدى الخاطبات اللواتي يتقن الحديث عن المستقبل المضمون والرفاهية وكل شروط الحياة المريحة والسعيدة التي تنتظر من تقبله زوجا... وعادت مذهولة من جواب الرفض: " مجنونة . ترفض الملايين؟!" .
ارسل غيرها مع وعد بمبلغ مغر اذا نجحت باقناعها ان تقبله زوجا .
كان يعرف انه ينصب فخا لها ، وربما فخا له أيضا . وعادت تقول له ليس لك نصيب.. البنت لا تشتري ولا تبيع ، عندي أجمل منها ..
يهز رأسة رفضا غاضبا من غباء الخاطبات . كيف يشرح لهن ان ما يشد رجل الى امرأة بعينها لا يفسر بجمال بارز فقط .
هناك شيء يحسه ولا يدري كنهه.
أحيانا يجد نفسه متناقضا مع قناعاته .
ولكنه كلما لمحها يصاب بما يشبه ضربة الكهرباء.. يصعقه ظهورها .
يتخيل نفسه في فراش الزوجية الى جانبها ..
هل حقا يستطيع ان يستيقظ كل صباح على نفس الوجه الى جانبه ؟

اليوم يبدو الأمر شديد الرغبة وقمة أمانيه ، وهو يعرف نفسه .. بعد شهر .. نصف سنة ، سيصاب بالرعب اذا استيقظ كل صباح على نفس الوجه ... لا يعرف .. ربما الحب يجعل الموضوع سهلا.. يغيره . ربما حقا تغير ؟ او على الأقل هذا ما يشعر به ..
كيف صمد والده ستون سنة ؟
الم يرث نفس جيناته ؟
المشكلة عنده ليست مالية ، يستطيع ان يدفع مبلغا يقارب من الحلم لفتاة مثلها.. هل سيكون أخلاقيا ان ينالها مقابل ثمن مدفوع ؟ هل سيظل للحب والعلاقة معها نفس القيمة فيما لو نالها مقابل نقدي ، بدل ان تهبه نفسها كما يهبها نفسه ، لأنها تريد ما يريده ؟!
كانت رغبته بها أقوى من كل تفكير منطقي.. كلما تظهر يصاب بارتعاش حتى لو كان ما يفصل بينهما مائة متر.. تشده بجمالها الذي لا يمكن تحديدة بوجهها وقدها فقط . لها اشعاعها الذي لا يفهم مضمونه ، حضورها القوي الذي يضفي ما يشبه الضوء الداخلي الذي ينير المشاعر النائمة ويوقظها .
هناك شيء لا يعرف كيف يحدده. طابعا انثويا نادرا ، يجعل المرء لا يشبع من النظر اليها بكل تركيبتها ، من وجهها الهادئ بمسحة جمال كلاسيكية ، الى صدرها الناهض ، وقوامها المتناسق ، وكأنه نحت على يد فنان ، حسب مقاييس جمالية لم تهمل شيئا الا أتقنته ..
حتى فساتينها التي تختار الوانها بما يتلائم مع قوامها ، معتمدة دائما ان تكشف ما لا يزيد عن سنتيمترات بخيلة فوق الركبة ، تجعلها أكثر اثارة حتى من التنورة التي قُصرت وقَّصرت عقل الشباب وراءها ، وهي المنطقة التي تشكل أحد أخطر أسلحة الإغراء الأنثوي. ولكن امام ظهورها ، تسقط تلك النظرية .. هناك ما يسيطر على العقل والأحاسيس أكثر ايلاما من التنانير القصيرة ..
بالتأكيد تعرف ان مظهرها لا يترك زوج عيون لا تتعلق بها ،ولا تترك رقبة لا تلتوي وراء ظهورها .. جمالها هادئ يريح النظر ، وليس جمالا يثير الحواس غير الواعية .. ربما هذا ما يجعلها فريدة ومميزة ، ولكنه لا يرتوي من النظر .. يريد ان يشرك حواسة الأخرى لتكتمل المتعة . رغم ان تأملها يبعث الراحة في نفس الانسان وتعطيه نوعا من الاحساس بجمالية جسم الانسان .
أيكون تمنعها وصدها له من عوامل جنونه وراءها؟ وهل حقا المرأة التي لا يصلها الرجل تصبح مرغوبة أكثر ؟
كان يطاردها وكأنه عاد مراهقا .. ويدو انها تعرف انها المقصودة بمطاردته لها.. ولا يبدو أن الأمر يهمها ، أو يقلقها.. ربما تزداد تغنجا ... وهذا يضاعف الرغبة الافتراسية التي تجعل قلب الرجل يخفق بشدة .
لو كانت فتاة من اياهم لأشترى خدماتها ربما لشهر كامل ، حتى يرتوي ..
ومع ذلك لم يفقد الأمل في الوصول اليها.
كانت تراه دائما في محيط حياتها.وبعد ان ردت خاطباته خائبات صارت تبدو اكثر استفزازية .. وأكثر من مجرد هدف آخر وضعه نصب عينيه. ربما عدم تعوده على الفشل يجعله مثارا ومصمما ؟ ولكنه يرفض كل التفسيرات الممكنة حين يخلو لنفسه ، ويقر ان شيئا ما تغير في حياته وتفكيره منذ صارت لا تغادر ذهنة ليلا او نهارا ..
كانت تبدو انها الحياة نفسها التي يحب ملذاتها .
ترى هل ترسم خطة لتقزيمه في مواجهتها ؟
كان يلاحقها بسيارته المارسيدس السوداء .. أحيانا يبدو انها تبتسم .
ربما احتقارا..؟
ربما لشعورها انها محط اهتمام العديد من الرجال..؟
ترى هل تشعر بالنظرات التي تقيسها طولا وعرضا ، وتفحص تناسق جسمها ومقاييسه ، التي لا يمكن الا ان تكون في مصاف أفضل المعطيات؟

في أحدى المطاردات شاهدها تدخل معهدا للتجميل.. اوقف سيارته ، واقترب ليرى ما هو التجميل الذي تحتاجه أجمل النساء.
موظفة على الباب منعته من التقدم أكثر نحو الغرفة المغلقة ، التي لم يفهم ما الدافع المجنون الذي حركه ليدخلها رغم معرفته ان ما يرتبكه حماقة قد تكلفة ثمنا غاليا.
- المحل للنساء ..
قالت له بأدب .. وشرحت له ان المعهد يقوم بتنظيف الأظافر وتنسيق الحواجب وازالة الشعر الزائد ، وتنسيق شعر الرأس .. والمانيكور للأظافر.. ويؤسفها ان "المعهد لا يستقبل الرجال" ، كما انهت حديثها مبتسمة.
ولمعت برأسه فكرة.
- الفتاة التي دخلت قبل قليل .. اريد ان أدفع تكاليف ما تطلبه .
- من تكون بالنسبة لها؟
- من العائلة..
- لحظة سأفحص ما هي طلباتها.
رفعت سماعة التلفون واستفسرت.
- مائة وخمسون دولارا يا سيدي .
دفع المبلغ ، وترك كرته للموظفة لتعطيه لها عند خروجها. وعاد الى سيارته وهو قلق من اسلوب رد فعلها. هل ستتصل لتشكره ؟ أم سيتلقى ردا قاسيا ، وربما شتيمة .. تضع حدا لحلمه المجنون؟
بعد ما يقرب من الساعة خرجت .. وقفت أمام معهد التجميل تجيل نظرها بما حولها.
- تبحث عني !
قال لنفسه.
توقعاته أصابت . ها هي تحدد مكانه .. تنظر باتجاه سيارته . وبلا تردد خطت بخطوات ثابتة نحو سيارته. تعابير وجهها لا تقول شيئا. شعر بارتعاش شديد . ارتعاش فيه تخوف ، وفيه انفعال الذي يخوض أول تجربة .
كانت خطواتها أشبه بالمارش العسكري..الأمر الذي يزيدها سحرا ، ويزيده انفعالا ورغبة لا تؤجل..
بدون مقدمات فتحت باب سيارته .. جلست بجانبه .
- ماذا تريد مني يا رامي؟
تعرف اسمه . ربما من الخاطبة ، ولا شك انها غير غافلة عن مطارداته والحاحه .
- اريد لك كل خير.
- انا لست طفلة.. تكلم معي بوضوح.
كانت كلماتها حادة وواضحة وتلقيها بلهجة عادية لا يمكن تفسيرها باتجاه محدد .
- الا تريدين ان تعرفي من أنا أولا؟
- أعرفك عنك كل شيء.خاطباتك لم يبقين شيئا لم يضاعفنه مائة مرة ..
- ولكنها الحقيقة ..
قاطعته :
- لا أقصد اموالك واملاكك !!
جملها القاطعة ، وقوة تعابيرها دون تردد تزيدها جمالا .
- أعطني فرصة للتحدث معك ..
- ها انا بجانبك ، قل ما تريد .. ولنقفل الموضوع مرة والى الأبد .
- اريدك زوجة .. وكل ما تشائين رهن أمرك .
- انا لست معروضة للبيع .. ولن اختار زوجي بسبب مقياس مالي ، الحب لا يشترى بالمال.

- طلبت يدك ..

قاطعته :

- انت لا تلائم تصوراتي .. أموالك لا تقول لي شيئا ، اذا كنت تظن ان المال يشتريني .
- انا لست تاجرا.. انا انسان عاشق .
- عمرك ضعفا عمري.. جيلك لا يناسبني وعقلي لا يناسبك .
- انا عازب .. لم أجد من تستحق ان أحبها.. حتى وجدتك ..
- شكرا .. هذه نقودك التي دفعتها للصالون ، رجاء لا تكرر ذلك ..

اعادت له ما دفعه في معهد التجميل.

- المال لا يشكل عقبة عندي.. اعتبريها هدية !
- لا أتلقى هدايا لا استطيع اعادة شيء مقابلها.

وهنا حسم رامي أمره . وقرر ان يغامر بكل شيء .

- اسمعيني جيدا ، أعرض عليك ليلة معي مقابل 100 الف دولار؟

صمتت . بان القلق على محياها. كان يعلم انها من وسط متوسط الحال ، ولفتاة بمثل جمالها ، الطلبات المختلفة من ملابس وادوات تجميل ونوادي وحفلات فوق قدرتها . لوهلة شعر انه قذر جدا. لوهلة شعر ان ما يقوم به يحطم هالة الحب التي أخفى وراءها شبقه ورغبته الجنسية الافتراسية بها .

هل ينحدر الانسان الى هذا المستوى من الحيوانية المجنونة مقابل ارضاء غروره الجنسي ليفخر امام أصحابه بتسجيل أهداف جديدة في ملعب من مستويات لا يحلم أحد بالوصول اليها؟

هل حقا سحرته كانسانة جميلة .. ام ان المرأة التي يعجز الرجل في الوصول اليها دائما هي الأكثر رغبة واحتراقا للوصول اليها؟

- انا جاد ليلة واحدة مقابل 100 الف دولار..؟

لا يعرف هل هو صوته ؟

هل حقا كان حلمه معها مجرد ليلة ؟

كل مطاردته الطويلة لعدة أشهر .. وما يدعيه لنفسه من حب نظيف لأول مرة في حياته ..؟ يختصرها بليلة واحدة ..؟

هل حقا يريدها مقابل مبلغ نقدي ..؟

كان يعرف ان ما يحركه بات أقرب للتحدي ، مما هو عشق حقيقي لأمرأة .

هل يستبدل كل ما حركه لأشهر طويلة من العذاب والأحلام الرطبة بمجرد ليلة يجرب بها طعمها ؟!

حقا لم يكن يعنيه ، أو يؤثر على حالته المادية ان يدفع لها 100 الف دولار.. حتى بدون ان تعطيه شيئا الا مجرد مودة.. لأول مرة يشعر ان المال مليء بالأوساخ . وتجعل من يملكه أكثر وسخا منه . ولكن جنونه كان يقوده ،

- لم أسمع ردك على اقتراحي ..؟
- أكون مجنونة اذا وافقت ، ولكني بنظر بعض الناس اكون أكثر جنونا اذا رفضت .. مبلغ مثل ما تقترح يفتح لي ابوابا لا أملك مفاتيحها .. وستكون على حساب كرامتي. والسؤال هل ابيع كرامتي ؟
- اذن تزوجيني ؟
- أستطيع ان أخسر ليلة من عمري مع عديم القيم ، ولكني لست مجنونة لأخسر كل عمري.

كانت كلماتها قاسية واستفزازية ، لكنه عض على لسانه شاعرا بتجاوزه للحدود .

كان يلمح دموعا مجمدة في عينيها . شيئا انسانيا ثار في داخل نفسه . يطعنه بشدة تؤلمه دون ان يقدر على تحديد نوع الألم. وشيئا يجعله يقرر ان ينقذها من نفسه . وحسم أمره :

- واذا عرضت عليك عشرة دولارات .. هل تقبلينني لليلة كاملة؟
- انت وقح .. وبلا شرف . اذهب الى الجحيم انت ودولاراتك .. من تظنني ؟

وفتحت باب السيارة وخرجت ..من طريقة مشيتها أيقن انها تبكي بمرارة.

في نفس اليوم كتب حوالة مالية بأسمها بقيمة 100 الف دولار.. مع رسالة يقول فيها: " شكرا .. هذا ثمن انقاذك لكرامتي وانسانيتي _ رامي "

ولكن الحوالة المالية اعيدت اليه ممزقة داخل رسالته!!

* كاتب وناقد واعلامي فلسطيني – الناصرة